محمود درويش ، أحبك أو لا أحبك
(دار الآداب ، بيروت ، ١٩٧٢)

ها هو صوت الشاعر محمود درويش يطل علينا من قريب هذه المرة . لا تحول بيننا وبينه حدود شائكة وغامضة بقدر ما تحول بيننا وبينه حدود مفتعلة . ويطل علينا جديدا هذه المرة ايضا . لا نتوهم ان فيما يكتب هواجس ومشاعر ومواقف ، لا تشكل بالنسبة الينا الا طموحا وتوقا ومثالا . بل ها هو يتحدث هذه المرة ، ويكتب في صحف نعرفها وأمام قراء نعرفهم ، في صف واحد مع الشبان من شعراء العربية ، بحيث يدفعنا ذلك جميعه الى ان ننظر اليه بعين تعودت النظر الى الشعر بقدر ما من الحيادية . فلم يعد صوت محمود درويش يتسرب الينا كما تتسرب رائحة الارض ، ولم نعد نتوهمه مطلا من فوهة بندقية ، او من خلال قضبان حديدية صدئة . ولطالما حال ذلك التوهم بين الشاعر وبين الشعر في رأي قرائه ، ولطالما اختلط ، بفعل ذلك الوهم ، الناقد والمحب في شخص القارىء العربي ، حتى نتجت ، مما شاء الخلط ، ركامات هائلة من « الدراسات » و« المقالات » و« الهوامش » حول ما سمي « أدب المقاومة » ، مستعينين فيها ، لا بالرغبة في المكاشفة الابداعية لهذه التسريحة الخاصة من الادب العربي الحديث ، بل بالعاطفة الوطنية والقومية، وكثيرا ما خلخلت هذه العاطفة، صادقها وكاذبها على السواء ، موازين الحقيقة وصور الواقع .

ان مجموعة الشاعر محمود درويش التي صدرت تحت عنوان « أحبك أو لا أحبك » كانت حصيلة الوقت الذي قضاه الشاعر في القاهرة حتى الان . وهذا يعني ان لهذه المجموعة اهمية خاصة في نظر الشاعر ذاته وفي نظر القراء ، لانها تجيب على التساؤلات الكثيرة التي تلت خروج محمود درويش من داخل اسرائيل واختياره القاهرة : هل بقي درويش شاعر مقاومة ؟ هل موقفه هذا ، من الناحية الشعرية ، موقف سليم ، وهل تملك هذه التجربة الجديدة ان تعطيه ما كانت تعطيه حياته النضالية السابقة ؟ وكيف ستكون عليه قصائده الجديدة ؟ ...الخ

ان محمود درويش يملك قدرا كبيرا وواضحا من التوق الى التجديد ، وهو على الدوام يتعجل الشعر ، ويتعجل تجربته من اجل خطوة جديدة ، ولقد ميزه ذلك عن رفاقه من شعراء الارض المحتلة ، حيث استطاع بفترة قصيرة ان يحتل مكانة ممتازة لا بين رفاقه — وهو ليس اكبرهم سنا — بل بين الشعراء العرب ايضا . وهذا القدر من التوق لم يكن لدى درويش خارجيا قشريا بحيث يدفعه من اجل ارضاء رغبة عابرة ان يستعين بلعبة لغوية زخرفية ، او لعبة شكلية لا يطمع منها الا بالادهاش . بل هو على العكس يتسم توقه بالصبر والاناة فلقد شاء لنفسه ان يتكشف الجديد من التجربة الفنية وهو داخل « غنائيته » التي استمرت حتى الان، منذ ان كانت غنائية رومانسية في مجموعاته الاولى ، الى ان تطورت ، بفعل الشاغل الابداعي لدى الشاعر، الى الرؤيا الجديدة ذات السمة الغنائية .

ولعل من أبرز مظاهر هذا التوق الى التغيير لدى محمود درويش انه بعد فترة من خروجه الى القاهرة لم يشأ ان يخرج الى الناس بوجهه القديم الذي اعتادوه وأتقنوه بل شاء ان يخرج بجديد آخر لا يجمعه « بالقديم » من شعره الا خيوط داخلية . فكتب مجموعة من القصائد تحت اسم « المزامير » ونشرها امام الناس . وهي قصائد لم تعتمد التفعيلة وحدة وأساسا موسيقيا . بل كتبها نثرا ، مستفيدا فيها من التوراة حينا ومن بعض شعراء قصيدة النثر في العربية حينا آخر . ولكنه في كلا الحالتين لم يبعثر شخصيته الحقيقية بل حاول جهده الانضباط بحدود هذه الشخصية ، وهي محاولة صعبة دون شك ، فقصيدة النثر لها تراثها المحدود في العربية ، كميا وزمنيا ، كما ان محمود درويش خاط له لفترة نشطة ومنفعلة، جلدا لا يملك بهذه السهولة ان يتخلى عنه او يقفز منه. لهذا السبب تجد ان قصائده « المزامير » النثرية لا تنتسب اليه انتسابا كاملا شأن قصائده الاخرى ، ولكنها تتوزع بينه وبين مجموعة من المصادر الاخرى ، ولعل ابرزها وضوحا صوت الشاعر السوري محمد الماغوط . فمن منا حين يقرأ هذا المقطع على سبيل المثال لا يستحضر في مخيلته صوت الماغوط :

اعيدي الي تقاطيع اسمي